

القصة العراقية الحديثة

بقلم الدكتور سهيل إدريس

قد كرّس نفسه لانتاج أدب مقاومة ونضال كان مسوقاً الى إنتاجه بسبب من أوضاع بلاده السياسية والاجتماعية ، ولم يكن بوسعها إلا ان يستجيب لحاجات الشعب الاجتماعية ، ومن هنا كان

يعتقد كاتب المقال ان القصة العراقية الحديثة تقف في طليعة النتاج القصصي في الادب العربي المعاصر من حيث انعكاس الاوضاع الاجتماعية في مرآة الادب . وهو يحاول في هذا المقال ، وفي ما سيليه ، درس هذا النتاج وتقويمه واستخراج اتجاهاته الكبرى .

ليس من اليسير على المؤرخ الأدبي ان يكون فكرة واضحة عن النتاج الأدبي في العراق قبل نهاية الحرب العالمية الاولى ، فقد كان هذا النتاج من القلة والاضطراب بحيث يستعصي على التحري والدرس .

إسهامه في رسم الطريق الجديد .
أما آثاره الاولى : « في سبيل الزواج » (١٩٢١) و « مصير الضعفاء » (بدون تاريخ) و « النساء » و « النكبات » ، فهي عمل مبتدئ ينقص منه التركيز والقوة والتجربة الناضجة . وقد نشر بين ١٩٢٣ و ١٩٢٨ مجموعات مقالات يرتفع فيها صوت الثورة .

على ان ملامح الادب العراقي بدأت تتضح على أثر الهزّة الكبرى التي أحدثتها الثورة العربية في الشرق العربي كله . ولعل العراق كان أسبق البلاد العربية الى تسجيل انعكاسات هذا الحدث التاريخي في أدبه . وهذه النزعة التي ميزت الادب العراقي الحديث من ادب سائر البلاد العربية ، ظلت تلازمه ولا تزال حتى الآن حتى أصبحت طابعه الخاص .

ومع رواية « جلال خالد » (١٩٢٨) يبدأ محمود احمد السيد ادباً قصصياً وطنياً كان له شأن وقيمة . وهذه الرواية تصوّر نفسية شاب عراقي ينتمي الى ذلك الجيل المتحمس من المناضلين الذين خلقتهم الثورة العربية الكبرى إبان الحرب العالمية الاولى في مختلف الاقطار العربية . ففي عام ١٩١٩ غادر جلال ، بطل الرواية ، العراق الذي كان يحمله الانكليز وفي نيته ان يتجه الى الحجاز وطن الثورة العربية ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، ف قضى حيناً من الزمن في الهند حيث صادق بعض الشبان الهنود الذين كانوا يعملون ، هم الآخرون ، من اجل استقلال بلادهم . وقد ربطته صداقة حميمة بصحفي هندي ثائر أتاح له مجالاً لتوسيع آفاقه الفكرية والوقوف على القضايا الاجتماعية والسياسية . وما لبث جلال أن أدرك الظلم الاجتماعي الذي يعانيه الهنود ، فخرج مفهومه الوطني من إطاره الضيق الى مفهوم إنساني واسع . وقد شهد يوماً اشتباكاً عنيفاً بين البوليس والمضربين من العمال ، فذكر انه انما غادر بلاده لانه لم يكن يحتمل ان تُحرم استقلالها ، وأنه لم يشهد فيها يوماً أي إضراب « لانه لم يكن هناك عمال ، وإنما مع الاسف فلاحون فقراء جائعون ، ومع ذلك فهم مستسلمون . » وقد أثر الصحفي الهندي ، وكان اشتراكياً متحمساً ، تأثيراً كبيراً في

وتتجلى هذه النزعة ، اكثر مما تتجلى ، في الادب القصصي الذي أنتجه العراق في الثلاثين عاماً الماضية ، فهو أوفر البلاد العربية الحديثة اهتماماً بالسياسة والاصلاح الاجتماعي ، ونادرأما تعالج الروايات والقصص العراقية مواضيع تخرج عن هذا النطاق . ولا يترتب على ذلك ان نعدّ هذا الادب ادب دعاية ، وانما هو يستحق ، على العكس كل تقدير ، لان كتابه انما يعبرون عن اهتمام الامة بوضعها وحالتها السياسية والاجتماعية ، ولهذا كان الادب العراقي الحديث ولا يزال ، ادباً حياً صادقاً فعالاً ، لانه صادر عن مجتمعه ، وعاكس لمختلف تياراته .

وفي إمكاننا ان نقسم الادب القصصي في العراق ، في هذه الاعوام الثلاثين الماضية ، الى ثلاث مراحل لا نؤرخها بالمقياس الزمني بقدر ما نؤرخها بتطور النزعات والتيارات .

١ . المرحلة الاولى

رائد الادب القصصي في العراق هو محمود احمد السيد . « وقد تقطعت موهبته مع تقطع امل العراقيين بقيام حكم ذاتي ديموقراطي ، تعود السيادة فيه للشعب الذي أراق دمه في كفاحه ضد استعمار العثمانيين والانكليز »^١ والواقع ان « السيد »

(١) عبدالقادر البراق « اعلام من الشرق ص ٧٩ » .

جلال الذي ادرك انه يؤمن بمفاهيم كثيرة مغلوطة لم تكن ضرورة عدم تحرر المرأة العربية اقلها شأناً . وقد ظل يواصل تثقته ويستمع الى المحاضرات العديدة التي كان يلقيها اساتذة معروفون حتى بلغه نبأ ملاءة حماسة وسعادة، هو نبأ ثورة القبائل العراقية في الشمال ، عام ١٩٢٠ ، على الانكليز ، وكان يحترق شوقاً لكي يعود الى بلاده حيث يشارك في الثورة ، ولكن نبأين اخمداً حماسه ، وهو في طريق عودته : اخفاق الثورة العراقية ، واحتمال الفرنسيين لسوريا . واضطر الى الفرار والهرب ، ولكن الى عالم الكتب هذه المرة ، فعكف على قراءة جميع الكتاب الاجتماعي ، الشرقيين والمستشرقين ، وتأمل في حالة العرب المتأخرة فأمن بان تأخرهم مردود الى جهلهم والى الحلافات التي تقسمهم ، والى الرأسماليين الذين يستغلونهم والى السياسيين الذين يخونونهم . وسرعان ما شعر بثقل المهمة الملقاة على عاتقه بان يشن حرباً لا هوادة فيها على جميع هذه الآفات .

ولا ريب ان قيمة الكتاب تقوم على فكرة الرواية، لا على الفن القصصي فيها . فلا شك في ان المؤلف يعكس نفسية جيل باكملة حين يدرس نفسية جلال ، ولكنه يعمد ، من اجل ذلك ، الى طريقة تقريرية تحرم الرواية كل قيمة فنية : ذلك ان النصائح والمواعظ والدروس الاخلاقية التي تفيض بها تستنفد القارئ ، آخر الامر . واما الحادثة العاطفية التي ترافق الرواية فهي من التفكك بحيث ان حذفها لا يضر بالرواية .

ثم اننا نجد روح جلال حاضرة في جميع اثار محمود احمد اللاحقة . فان مجموعة « الطلائع : صور واحاديث » (١٩٢٨) تحوي اصداً من الرواية الاولى . مثال ذلك « الطالب الطريد » التي تروي قصة طالب فقير طرده مدير المدرسة اثر مشاحنة حدثت بينه وبين طالب غني . والجدير بالذكر ان المؤلف قد تناول هذه الاقصوصة ، في مجموعة تالية ، ليكسبها معنى اجتماعياً ابعده واعتمق ، فاننا نرى هذا الطالب نفسه ، بعد بضعة اعوام يلتحق بمصنع يعمل فيه ليكسب عيشه ، ونلمس ان اعتزازه وحسه بالجدارة الانسانية هما من القوة بحيث انه لا يتردد في ضرب صاحب المصنع الذي كان يعامله معاملة سيئة . وقد سبق طبعاً الى السجن ، ولكن ليس لذلك اية اهمية . فان فكرة المؤلف واضحة : سيخرج صاحبنا من السجن يوماً ، ولكنه يكون قد امتلأ احساساً بالظلم وانتفاء العدل الاجتماعي ، وهو

لن يقصر في التفكير بالثورة واقناع الناس بها . وهكذا لا تقوم قيمة هذه الاقصوصة على حادثتها بالذات ، وانما على ما توحيه وتستشرفه من امكانيات . واقصوصنا « الامل المحطم » و « مجاهدون » تستمدان فكرتهما من ينبوع نفسه فتصور الاولى ياس الفرار ، الحل الذي ترضيه النفوس الخائرة ، وتصور الثانية قلق فريق من الشبان الذين يحملون باصدار جريده ، ولكن المال كان ينقصهم . غير ان شدة ايمانهم بمشروعهم كان يحجب عنهم هذه الحقيقة ، فلا يجدون الا ان يتهم بعضهم بعضاً بالاهمال والكسل .

وفي المجموعة بعد ذلك اقصيص هي اقرب لهلى الصور مثل « انقلاب » و « جماح هوى » التي تصور تفتح عاطفة جنسية لدى مراهق ، و « أو تسهرين ؟ » و « رسالة هجر » وكلتاها تتناول قصة علاقات تشترك فيها امرأة بغبي .

ولعل خير آثار محمود احمد السيد مجموعته « في ساع من الزمن » (١٩٣٥) ففيها تصوير صادق لبعض المظاهر الاجتماعية في العراق : « عاتكة » امرأة هجرها عشيقها فسقطت في الرذيلة ؛ « طالب افندي » رئيس قبيلة يعيش راقصة ؛ و « رصاصة في الفضاء » تصور نموذجاً آخر من هذا الجيل القلق الذي يؤثر احياناً الضياع ويسمى اليه بسبب انه لا يتمكن من التعبير عن عاطفته القومية .

اما اقصوصة « باداي الفايز » فهي اجمل اقصيص الكتاب ، ولعلها من اجمل الاقصيص العربية الحديثة . انها تصور لنا الحياة الخائرة التي تسوقها قبائل الفلاحين التي تعيش على ضفتي نهر الفرات ، وتصور اخلاق هؤلاء الفلاحين اصدق تصوير . فباداي شاب عزيز النفس يرفض ، كما يرفض رفاقه ، ان يسيء مالك الارض معاملته . وقد ثار يوماً على سيده حين اصابته ضربة من عصاه ، ولكن هذا السيد سخر به وعيّرته بجبنه يوم امتنع عن الانتقام لاخته اذ قتله جاسم احد رجال القبيلة المجاورة . وقد احس باداي بكرامته تجرح ، فعزم على ان يقتل « جاسم » . وقيد ترصده بالفعل في الليلة التالية امام خيمته ، ولكن النهر فاض فجأة فحطم الجسور والسدود ، وغمر الارض التي كانت تقوم عليها قبيلة جاسم . وحين رأى باداي عدوه يكافح من اجل انقاذ أسرته ، اقبل يعينه ، فحمل احد اولاده الى مكان امين . ثم عاد الى بيته دون ان يحقق ما جاء من اجله . وما لبثت قبيلة جاسم ان اقامت سداً جديداً وعادت

الى ارضها ثم قامت المساعي للصلح بين الرجلين . ولم يتردد جاسم في ان يقدم اخته لباداي الذي تزوجها . ومنذ ذلك الحين لم يبق احد يجروء على ان يعير باداي بانه جبان .

وقد وفق المؤلف ، في هذه الاقصوصة ، الى ما لم يوفق اليه في اقصيصه السابقة من الناحية الفنية . فان شخصياته هنا حية واضحة الخطوط ، وسرده طبيعي لا تكلف فيه ، واسلوب الموعظة الذي يشهده القارئ في آثاره السابقة ، غير موجود هنا ، فضلاً عن ان العادات مرسومة رسماً جيداً ، وخلق العفو عند المقدرة الذي يمتاز به العربي اجمالاً موصوف بصدق كبير .

وفي هذه المرحلة البدائية من تاريخ القصة العراقية الحديثة صدر كتابان لانور شاؤول باسم « الحصاد الاول » (١٩٣٠)

و « الحصاد الثاني » (١٩٣٦) وهذا الاخير مجموعة اقصيص مترجمة واما الاول فيضم اقصيص موضوعة يبدو المؤلف فيها وهو يحاول ان يعي مهتمته كقصص . وقد جاء في مقدمته :

« ان حمادي هذا لم يخل من متاعب وعقبات ، لاني لست سوى احد القاصيين العراقيين الذين يحاولون خلق القصة العراقية من العدم ، لست سوى « كشاف » امهد الطريق لهذا الضرب من الادب زبالغ الذي اصبح له من سيطرته في عالم النشر مقام سام وفضل لا ينكر .» ثم يعرض المؤلف للصعوبات التي يجدها الكاتب العراقي في اختيار موضوعاته فيقول : « ليس مجهولاً لدينا ان مجتمعا ما زال ضمن حدود ضيقة ، وان الحرية الفكرية ما زالت في افق اغم . وان الجمهور لم يتعود استماع قارص اللوم ومر الانتقاد يفرغه الكتاب القاصيون في صلب قصصهم ... »

وبعد ان يبوب قصص كتابه ، ينتقل الى معالجة قضية الجو العراقي وامكانياته القصصية فيقول :

« ارى ان هناك دعوى كثيراً ما يتبع بها بعض المتأدبين مفادها ان الجو العراقي لا يصلح لتكوين القصة ، اذ ليس عندنا ما يسهل ملتقيات الحب وتكبير حوادثه التي يجب ان تكون محوراً لدوران القصة العراقية . انني ازاء هذه الدعوى لايسمي ، مع اقراري بقحول التربة العراقية ، الا ان اعلن خطئها وبعدها عن الصواب ، اذ ان القصة لا تقوم على القبليات الحارة يتبادلها العشيقان ، او على لواعج الهوى بينا الحبيبان فحسب ، انما تستمد عناصرها من المجتمع بما فيه من عادات ، تقاليد ، مبادئ ، اخلاق وآداب ، وبما فيه من نقص او انحطاط ، او ارتباك او غير ذلك مما يلفت نظر القاصي ويستدعيه للاصلاح ... »

هذه المقدمة لا تخلو من اهمية . فاذا تعمقنا رايها ان المؤلف قد اختط فيها نهجاً له في معالجة القصة . ولكن الذي يؤسف له انه لم يحقق هذا النهج في مجموعته ، لانه لا تنضم بالاجمال الا حكايات سريعة هي تلخيص لروايات كبيرة ، لا قصص فنية مركزة . ثم انها تخضع لاهمال وسهولة بارزين ، وتخلو من كل ابداع . فالمؤلف يروي بلغة جيدة غالباً ، ولكنها غير مؤثرة ، حكايات بسيطة او غريبة لا تحمل معنى قوياً او تدل على اتجاه

هام : قصة فتاة ترفض الزواج بالرجل الذي اختاره لها ذووها لتتزوج حبيبها (بنفسجة) ، وابن سفاح لا يعرف الا في عهد متأخر جداً حقيقة هويته (اللقيط) وامرأة تخنق ابنتها الخامسة بعد مولدها ، بدافع من زوجها ، فتقطع لذلك حسرات (هذيان زوجة) وزوج ينتهي الى الجنون لفرط ادمانه على الخمر (سكر فيجنون) ، وزوجة تحسب ان زوجها قتل في المعركة فتتزوج سواه ، وحين يعود الاول ، تصاب بالجنون (الجنونة) . وهناك قصص خالية من اي معنى مثل « ضياع الاثنتين » و « مشاهد ليلة » و « المقامر » و « صفقة خاسرة » الخ ... اما التصوير الاجتماعي الصادق فنكاد لا نجد الا في « فنوف العيد » ، التي تروي قصة ام تسرق لتشتري لطفلتها ثوباً ليوم العيد ، وفي « آمال مزقة » ، التي تعبر تعبيراً ضعيفاً جداً عن القلق المستحوذ على الشبان الساعين وراء مثل أعلى مفقود . ومعظم القصص في الحق تقتقر الى السمة الخاصة وتسقط في العادي العمومي ، فاذا اضيف الى ذلك انعدام التحليل النفسي ظهرت بشكل اوضح القيمة الضئيلة لهذه القصص .

وقد جرت العادة على اعتبار انور شاؤول من رواد القصة العراقية الى جانب محمود السيد . اما نحن فنشبهه بالمنفلوطي في مصر . فبالرغم من ظهور كل منهما في جيل الرواد ، فان تأثيرهما في خلق الأدب القصصي ضعيف جداً .

ب. المرحلة الثانية

يتضح مما تقدم ان المرحلة الاولى في نشوء الأدب القصصي بالعراق هي مرحلة تحسس وتلمس . فان في آثار السيد لهجة وعظ تقريرية أضرت بالناحية الفنية من قصته . اما انور شاؤول الذي حاول ان يسبغ على قصته طابعاً فنياً أوضح ، فقد كانت معظم اقصيصه غثة باردة .

اما المرحلة الثانية التي تبدأ مع القصص ذو النون ايوب حوالي ١٩٣٦ ، فقد حاولت ان تقيم القصة العراقية الحديثة على اسس أثبت وأركان أمتن . ذلك ان جل الروائيين والقصاصين الذين ظهروا فيها ، سعوا الى انتاج أدب حيي يجمع الى حاجات الواقع الاجتماعية ، حاجات الفن ومقوماته . والواقع اننا نشهد في هذه المرحلة ولادة آثار فنية تشبه الآثار المصرية او اللبنانية التي صدرت في ذلك العهد بفرق واحد ، هو ان الآثار العراقية ظهرت إثر فترة أقصر من فترات التطور .

وأهم هذه الآثار ولا ريب ما كتبه ذو النون ايوب في

الرواية والاقصوصة ، وهو دون شك اغزر كتاب القصة في العراق. فقد اصدر حتى ١٩٥٢ روايتين طويلتين واحدى عشرة مجموعة من الاقاصيص.

وطريقة المؤلف في تقديم أبطاله تعتمد على الحركة والعمل ، لا على التحليل والوصف . فان حركاتهم وتصرفاتهم هي التي تكشف عن اعماق نفسياتهم . ويبلغ ايوب في ذلك درجة طيبة من التوفيق والنجاح . ويتبع مجموع آثاره القصصية تطوراً هاماً يتعاقب فيه التحسن ويطرد التقدم .

والملاحظ في مجاميعه القصصية ان كل مجموعة تناول لونهاً من الافكار يربط بين مختلف المواضيع : فبينما تصور المجموعة الاولى « رسل الثقافة » (١٩٣٦) كفاح هذه الطبقة المثقفة التي تتألف من المعلمين والاساتذة؛ تقدم لنا المجموعة الثانية « الضحايا » (١٩٣٧) نماذج من هؤلاء الذين يسقطون صرعى التقاليد والأوهام التي تطفئ على المجتمع فتفسده . فهذه امرأة لا يمنعها ذكاؤها الألمي من ان تسقط في الرذيلة (اقصوصة «ساقطة») ، وتلك فتاة تنتحر لأن ذويها يفرضون عليها الزواج بشيخ مسن ولكنها تسلك (طريق الخلاص) ، وتلك ايضاً فتاة لا يتردد اخوها في قتلها إذ يراها تتحدث إلى جار لها (شرف) . على ان لهجة النقد الاجتماعي تبدو اكثر اضمحلالاً في مجموعته « صديقي » (١٩٣٨) وهي تضم بضع صور لأبطال ثأرين على التقاليد والقيود الاجتماعية . فأقصوصة « عندما ثور العاصفة » تقدم لنا موظفاً برماً بقيود وظيفته ومتطلباتها . حتى إذا صرف من الخدمة ، وهذا ما كان ينتظره بفارغ صبر ، انخرط في العمل الحر ، ولم يتردد في ان يعمل سائق سيارة ليكسب حياته « بنبل وشرف » ويعيل بعد ذلك خمسة عاطلين عن العمل . وفي هذه الاقصوصة حس فكاهي دقيق يجعل لها قيمة خاصة . واما « النهاية » و « تمرد » فتضمان آراء كاملة في فلسفة الثورة على أكاذيب المجتمع . وفي مجموعة « وحي الفن » (١٩٣٨) نلتقي بشخصيات تكاد تكون غريبة ، وهي شخصيات أتعبها الفساد وملاها المجتمع المزيف تبرماً بالحياة ، فسعت إلى التماس السلوى والهرب من الواقع بالانغمار في دنيا الفن . ونقرأ هنا احدي روايتي المؤلف القصصية « حلم على نغم » التي تروي قصة تكوّن حلم على نغمات مقطوعة ويمسكي كورسكوف الشهيرة « شهرزاد » ، فان حركات هذه الموسيقى تعبر في ذلك الحلم عن مختلف مظاهر الفساد في السياسة الحكومية، حتى تبلغ نهاية المقطوعة « غرق باخرة السندباد » وهي ذات مغزى بعيد .

وفي مجموعة « الكادحون » (١٩٣٩) يستغرق ايوب في طبقة العمال والفلاحين الذين يهدى اليهم كتابه على أنهم « منبع ثروة العراق » ، وهو يختارهم جميعهم تقريباً من الريف . او من سكان شواطئ النهر ، كساحب المراكب ، ذلك المسكين ، الذي يعصى على اسد الاخطار ويقهرها ليموت آخر الأمر أنفه ميتة ، او كذلك الثائر الذي يحرز مع رفاقه ، في إحدى معاركهم ضد الانكليز ، نصراً رائعاً ولكنه لا يلبث ان يهلك في معركة ضد الجنود العراقيين انفسهم . وأقصوصة « المشنقة » في هذه المجموعة نفسها اقصوصة بديعة تستحق اهتماماً خاصاً ، ولا سيما ان الحس الفكاهي الذي يتخللها يجعل في صميم ذاته حس النجاعة :

ألقي حزباوي ، الذي ثار على جنود الحكومة ، في السجن . وهناك راح يستعيد حياته الماضية ، فاذا هو يفضل هذا السجن على كوخه الصغير الذي احترق ذات يوم . والذي آلمه من ذلك كله ان امرأته قد هلكت في الحريق . وقد دعاه بعد ذلك رئيس القبيلة الى مأدبة اجتمع فيها اناس كثيرون ، فأكلوا كما لم يأكلوا من قبل ابداً ، ثم دعوا الى ان يقوموا بثورة ، فلم يتردد احد منهم في تلبية الدعوة . ومن سوء حظ حزباوي انه ألقى القبض عليه مع بعض رفاقه . اما الآن ، وهو في السجن ، فهو يشعر انه لم يقم بالثورة الا ليخفف الاشجان التي خلفها في نفسه احتراق منزله وامرأته . وها هم يحدثونه الآن عن « المشنقة » ، ولكن ما هي المشنقة ؟ انه لم يسمع احداً يتحدث عنها طوال اقامته في كوخه ! فهل تكون المشنقة اختراعاً كالسيارة او كالقطار الحديدي ؟ وفي اليوم التالي أتى من يخلي سبيله ، فلم يفهم من أمره شيئاً ... وسأل حارساً : لماذا أخلوا سبيله ؟ فأجابه : لقد شنت وانتهى الأمر . وهكذا خرج حزباوي من الثورة ، وفي رأسه بضعة اسرار لم يجد لها حلاً : لماذا ثار ؟ لماذا حكم عليه بالاعدام ؟ ما هي المشنقة ؟ وكيف يشنقون محكوماً عليه فلا يموت ؟ أسئلة ستظل مزروعة في رأسه حتى يتزوج من جديد ، وبومذاك ينسى امرأته الميتة والثورة وشقاءها .

إن في هذه القصة صورة صادقة جداً لسذاجة القروي وطاعته العمياء ، واستسلامه الكلي ، ولا سيما انعدام اي مثل اعلى له . أوليس في المهجة الفكاهية التي اديرت بها القصة حس تراجيدي عميق لمصير هذا الكائن الأعمى ؟ ذلك الاستسلام الذي يبدو لوناً من الالهانة هو ايضاً موضوع قصة اخرى تحمل عنوان « آلام مزمنة » وتدور حول تلك الآلام التي يتحملها الشعب بصبر عجيب حقاً . « للبحث صلة » سهيل ادريس